

!! وإذا بالشأن السياسي يُترجمُ إلى أزمة فكرية تأملية خانقة، و في مقدّمتها الفنّ المسرحي الذي كثيرا ما رفع راية الثورة و التحديّ، و يدفع بالكتابة المسرحية نحو الإقرار بحبائل الإنشقاق الممضّ في بيئة عربية تحكمها سلطة فردية مطلقة بالحديد و النار. وهو يقدم على كتابة مسرحية، و ينزعون أغشية الدلالات، تطلب الغطس غوصا عن درّ كامن، أنثى هي في المسرحية متأبّية متمنّعة تطلب صبرا و مراودة. إنّها تنطلق من العنوان، فهل أنّ إعتقاد التاريخ في تخيل أحداث النصّ المسرحي هو إسقاط لقضايا الراهن على الماضي أم هو تحيين لقديم مستعاد؟ فما هي أهم المظاهر الشاهدة على ذلك. 2- الجوهر: فركّز على تغلغل فكرة الإنتقام و الثأر على شخصية البطل، و حاشية و رجال دين مثل المغني "مزهود" الذي أشار على "رمضان باي" بسمل عيني مراد وهو لا يزال حدثا للتخلّص منه و الإنفراد بالحكم، و الشيخ العواني مفتي الديار و الكنانيّ. ثمّ عساكر و رعية. خاصة و أنّ مراد تدفعه الشهوة إلى سفك الدماء بدعوى "البالة جاعت" (هو إسم سيفه التركي) و لا يتحرّج من سرد صور التعذيب الذي يمارسه على خصومه للتأثير في مخاطبيه و حملهم على الرضوخ لأوامره، و دفعهم إلى الخوف من بطشه و انتقامه العنيف، فيقول: "قتلتُ العواني و سجنْتُ الشيخ البكري في تونس. هل تريدون أن أسرد عليكم كلّ ما فعلته؟". و إذلال الأفراد و الجماعات، و يتجاوز بذلك القصاص إلى الإنتقام، بل إلى الظلم و الأخذ بالشبهات. تنمو و تتكاثر حتّى تحوّل إرادته إلى مارد زاحف إذا تحرّك على أرض سوى بها ما عليها، و ويل لمن تمرّد و لم يطأطئ الرأس، أليس مراد هو من أمر كلّ من بايعه بالسجود إليه؟ هو ذا الحاكم الجائر، و على قدر جوره يشتدّ بالنفوس البلاء، و ينتظر من كلّ ذلك شكراً، و كيف لا تشكر رعية و قد أنعم عليها ببقاء الأنفاس؟ القابض على رقاب العباد و الماسك بزمام البلاد، و هذا ما جعله يدخل في صدام مع حاشيته المقرّبة منه التي عارضت سياسته الوحشية و إفراطه في القتل. و حتّى من أقاربه كنقمة ابنة عمّه أمينة عليه على خلفيّة قتل زوجها بسيفه البالة، أبقاك الله. الناس تستنكر قتل الشيخ محمد العواني و تعذيب الشيخ أبي غيث البكري. "فإنّ بطل بولعراس يخالفهم الرأي، و لا يقرّ بقانون انتهك حرمة الجسدية، فصرّح بذلك قائلا: "تدافعون عن نظام كنت أنا ضحيّته. فليقوضه سيفي و يفوقه في الدماء". و مع كلّ هذا العنف و القسوة التي اتّسمت بها شخصية مراد، و هي تحاول الإنقضاض عليه، و خلق أنفاسه، فتكدّر صفو حكمه، و تشمت في تنالي المصائب عليه. حالة مراد هذه صوّرها الحبيب بولعراس في نصّه المسرحيّ و قد استبدّ ببطله جنون العظمة بإعتبارها خاتمة رحلة تسافر فيها النفس الحاكمة مع وساوسها فتتدرّج على سالام الوهم، جنون العظمة صورة ممتلئة بفراغات مرّت عليها ريشة الزمن فلونتها بأصباغ متلاحقة: فتنة الألقاب و مهابة السلطان و منازع التقديس و التوق إلى التألّه و نشوة عند رؤية دماء بريئة تسيل غزيرة أمام عيني الحاكم بأمره. فإنّ شخصيّة تحكمها صراعات داخلية عنيفة، تعصف بكيانه، فرضتها مشاعره التي جمعت بين المتناقضات: الحبّ و الكراهية، الحقّ و الباطل. و لئن بدا مراد في الظاهر متعدّد الجوانب، فإنّه في حقيقة الأمر واحد تتصارع في أعماقه قوى عديدة هي عماد حياته و جوهر مأساته مثلما بيّن ذلك المؤلّف الحبيب بولعراس في مقدّمة المسرحية: "إنّ حساسيّة مراد أدمتها الفواجع التي عاشها منذ نعومة أظفاره جعلته يجابه مصيره وحده، إنّ مراد ليس كبقية الحكّام، يسائله باستمرار، يعانیه مأساويًا، أراد الكاتب أن ينتقد مشكلة الحكم الفردي، و إنسياق الحاكم خلف إشباع شهوة ذاتية. فالكاتب على وعي بأنّ تلك الحاشية متى كانت سلبية و غير قادرة على الحاكم و ترضى بالقمع. و لكنّ الزمان لا ينصف مظلوما رضي بالظلم و سكن للمدّة و وطأة القهر. و لذلك صوّر الحبيب بولعراس في مسرحيّة كيف رضخت خاصّة مراد لسلطوته، و رضيت بظلمه، نزلت من شامخ عزّها لا محالة، و أشرفت على حضيض التلاشي و الفناء، و لا تنبت العظماء من الرجال إلّا في القليل. و مهلك كلّ مارد معتد. تلك هي العدالة التي ينشدها مراد، عمياء كصاحبها، قد سُمِلت عيناها فعجزت عن إدراك حقائق الأمور. و تلك هي سياسة الاستبداد: قمع و ظلم و جور و طغيان، و ما الحرّية في نظام كهذا سوى أكذوبة، فهي المكبوت و المغيّب و المسكوت عنه على الدوام. فأية خصائص فنيّة ارتآها بولعراس لطرق هذه القضايا السياسية الشائكة. بالتوازي مع كلّ هذه المضامين و القضايا الحسّاسة، و يستسيغ المشاهد معانيها متى عرضت المسرحية على الركح. من ذلك ما نجده في تدافع التداخلات و تسارعها، كقول مراد مخاطبا حاشيته بنبرة حادة: "كفّوا. بل تخلق وجودها ذاته عبر منطوقها. لذلك نرى الشخصية في مسرحيّة" مراد الثالث" تفضح نفسها، وهي تتكلّم، استوجب جزالة و قوّة و جدية للفظ مثلما يتّضح في قول "محمد خوجة" للعلماء لحتّهم على خلع مراد من الحكم و الثورة عليه: "إنّ بيدكم السلاح الذي دعاكم مراد من أجله. و سيكون الجند عندئذ معكم". فهو لا يستخدم إلّا أبسطها، محمّلا إيّاها من المعاني المكثّفة و الدلالات الكثير. و نوع في مواقعها فجعلها سابقة للحوار تارة، أو في وسطه في مواضع كثيرة لوصف جوانب من نفسية الشخصيات و خاصة بطله مراد، ثمّ لتحديد طبيعة العلاقات بينها و بينه، و دفعه نحو لحظة التأمّن. بحيث أدّت تلك الإشارات- متكاملة مع الحوار- وظائف فنية عديدة، و خاصة حين صوّرت البطل عنيذا مكابرا طورا، و منكسرا يائسا طورا

آخر. 3-الخاتمة: و من كلّ ما تقدّم، جهر النصّ بأوجاع لا حصر لها و متاعب شتّى، و يتوغّل في ثنايا شخصياته و تشعّباتها، و نجح في العثور على الرابط الدقيق و الخفيّ في العلاقات السياسية و القيم و المواقف التي اتّصلت جميعها بالحكم الفردي المطلق الإستبدادي، فبدت تلك العلاقات واهنة تكاد تتصدّع في كلّ حين لأنّها لم تكن يوما مدعومة بأسس قانونيّة تمكّنها من الثبات و الرسوخ. و لا يدرك أبدا متى و كيف ينتهي، هي لعبة مرآوية تُسلّب فيها الإرادة سلبا،